نثرتها في الهواء ، ذريتها ، / هواء وطني الخانق ، / قدمتها ذبيحتي / لا نباتا لا حياة / في اللحظة الاولى / في بلادي . / على وجهي ارتميت .

أرضي بوار ، / مدنها صوامت ، / هجرتها العقبان حتى ، / أشجارها اجتثت ، / ترابها وحل وبراز . / ليست لي الارض هذي / لم أرها فيما مضى ، / قلبي بعيد / تجد قدماي في لحاقه .

تسعيان للمنفى ، من جديد ؟ / تسعيان للمنفى . / أرضي لم تكن ارضي / التي عدت أمس اليها : / حفنة تراب / فقدتها / أرضي .

وهنا يظهر اغتراب الشاعر تجاه وطنه اغترابا كاملا . فهنا الحب الذي يبدو وكأنه استحال كراهية ومهد الطريق للمنفى الجسدي الاختياري . ولكن توفيق كان قبل ذلك منفيا وسط شعبه . فوطنه فلسطين كان صعب المنال وكذا كان مثاله . لقد كان مصيره ان يعيش منفيا الى الابد .

الحبيبة : ان المرأة بالنسبة له ، مع انها مصدر شعري ، لم تكن مبعث حب رومنطيقي بل مبعث حب ساحق ومعذب جدا وربما أيضا مصدر خطيئة أنهكه الى حد الموت .

لقد استوحى ثلث قصائد مجموعته « ثلاثون قصيدة » من الحبيبة . الا اننا لا نعلم من هي تلك الحبيبة أو ما اذا كانت هي حبيبة من حبيبات . اننا نقرأ في قصيدته السادسة عشرة عن حب جميل وقصير الاجل :

كالبرقة في منتصف ليل شتوي / ومضت ، / كالبرقة لمعانا وخطفا ، / لا رائدة غيث ولا بشرى ربيع . / لمعت ، ولمع الافق ، / واختفيت أبدا ، وكأن ما كان ما كان .

عرفتك / وأنا اناء من الزهر خلو ، / فكنت الزهر : لكن ما كان أسرع ما فني ، / وأنا ديوان ليس فيه شعر ، / فكنت الشعر : لكن ما كان أقصر غمرته ، / وأنا هيكل غاب عنه القدس ، فكنت القدس : / قدسا واشتهيتك .

وغبت وغبت ، / واستكان القلب ، من غير هدوء / وارتمى الفكر ، من غير سنة ، / ولكن أحقا أتيت ؟ / وحقا كنت ؟ / وكنت ؟

وفي قصائد حب أخرى من المجموعة ذاتها نرى سعادة وبهجة طفولية، نظرات عفيفة، عيون مثل بحيرات زرقاء تبعث في النفس رغبة في السباحة فيها . ثم نسمع توفيق يتحدث عن « نقص حقي أليم » في حبه « الى أن انزاح الستار الاخير » . ويقول بعد ان يتحدث عن الازدراء والخيانة والهجر :

كذا يكون الرحيل : / مطهر اماني وارتياب / فرعشة نعيم / تمحي في جحيم سرمدي ؟

اما في قصائده (في المجموعة ذاتها) التي يخاطب فيها الله فاننا نسمع صوت خاطىء تائب أحيانا ومتمرد أحيانا أخرى . الا أننا لا نعلم ما هي خطيئته ولكننا نراه يبحث في القصيدة الاولى في مجموعته « ثلاثون قصيدة » عن « الملذات » في الظلام ثم يعترف بقوله :

في لحظات الذرى رأيت الهاوية ، / ومع نشيق العطور تنشقت الحنوط .

ثم يتساءل توفيق :

أأنا الملوم / اذا استدار القفل ولم يتدحرج المفتاح / الا في منزل على جبين ربته / وصمة كوصمتي ؟

الا أن الشاعر يواجهنا في « القصيدة ك » التي صدرت في العام ١٩٦٠ بنوع آخر من الحب ، وانني أعتقد ان هناك حبيبة أخرى . الا ان ثلاثا فقط من الخمس وعشرين قصيدة التي تضمها هذه المجموعة مستوحاة مباشرة من الحبيبة ولكن تأثيرها يسير بقوة في كل القصائد الاخرى . وربما كان ذلك سبب اطلاق اسم « القصيدة ك » على هذه